الفَصْلُ الثَّامِنُ

عجائب الأشجار

حمل الأشجار:

ثم انظر إلى تكون حمل الشجرة وتقلته من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجاب، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين بينا تراها حطبًا قائمًا عاريًا لا كسوة عليها إذ كساها ربها وخالقها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة وكساها من الورق كسوة هي أثبت من الأولى.

ثم اطلع فيها حملها ضعيفًا ضئيلًا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبًا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات.

ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها في تلك العروق والمجاري فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبن أمه ثم رباها ونماها شيئًا فشيئًا حتى استوت وكملت وتناهى إدراكها، فأخرج ذلك الجني اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء.

هذا وكم لله من آية في كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لايبصرونه تفنى الأعمار دون الإحاطة بها وبجميع تفاصيلها[1].

الحكمة في خلق الأشجار:

ثم تأمل الحكمة الباهرة في هذه الأشجار كيف تراها في كل عام لها حمل ووضع، فهي دائمًا في حمل وولادة، فإذا أذن لها ربها في الحمل احتبست الحرارة الطبيعية في داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها في الوقت المقدر لها، فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ تكوين النطف فتعمل المادة في أجوافها عملها وتهيئتها للعلوق حتى إذا

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٣).

obeikandl.com

آن وقت الحمل دب فيها الماء، فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء في أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق، ما تتبختر فيه وتميس به[١] وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبان للناظر حملها علم حينئذٍ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها، فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة في بطون أمهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدلت إليك أفنانها كأنما تناولك ثمرة درها، فإذا قابلتها رأيت الأفنان كأنها تلقاك بأولادها وتحييك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حتى كأن مناولًا يناولك إياهم بيده -ولا سيما قطوف جنات النعيم الدانية التي يتناولها المؤمن قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا-

وكذلك ترى الرياحين كأنها تحييك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا إكرامًا لك وعناية بأمرك وتخصيصًا لك وتفضيلًا على غيرك من الحيوانات، أفيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها، فكيف إذا استعنت بها على معاصيه وصرفتها في مساخطه، فكيف إذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها ما هو ولأي شيء خلق ولماذا هُيِّء وأي أمر طلب منه على هذه النعم كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة، لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله وحمدًا وشكرًا وطاعة وشهود تقصيره- بل تفريطه- في القليل مما يجب لله عليه ولله در القائل:

قَدْ هَيَّؤكَ لِأَمْرِ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ ... فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الْهَمَلِ[٢]

---

(١) تميس به أي تتبختر به.

(٢) السابق (١/ ٣٥٣).

جذور الأشجار:

ثم تأمل إذا نصبتَ خيمة أو فسطاطًا كيف تمده من كل جانب بالأطناب[١] ليثبت، فلا يسقط ولا يتعوج هكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة في الأرض منتشرة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت أعاليه امتدت عروقه وأطنابه من أسفل في الجهات. ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح[٢] العظام على الرياح العواصف.

وتأمل سبق الخلق الإلهي للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفساطيط من خلقه للشجر والنبات لأن عروقها أطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفساطيط ثم يحاكي بها الشجرة.

أوراق الأشجار والحكمة منها:

ثم تأمل الحكمة في خلق الورق فإنك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر.

فمنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجًا دقيقًا معجبًا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل، ولاحتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله، فبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك ما يملأ الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة إن هي إلا إرادته النافذة في كل شيء وقدرته التي لا يمتنع منها شيء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) الأطناب: جمع طنب وهو: حبل يشد به.

(٢) الدوح: جمع دوحة وهي: الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة.

فتأمل الحكمة في تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة، فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه.

وتأمل ما في العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل، فهي بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان، فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك، فلا يعرض لها التمزق[1].

الأوراق ستر وزينة:

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجر وسترًا ولباسًا للثمرة ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها.

وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس، فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى إذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسي لباسًا جديدًا أحسن منه، فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها، فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه ولا تسقط إلا بعلمه ومع هذا، فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرًا آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى.

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦]، فالنجم ما ليس له ساق من النبات، والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

---

(١) السابق (١/ ٣٤٨-٣٤٩).

ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه، فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحًا وسجودًا وصلاة وتأويبًا وهبوطًا من خشيته كما ذكر تعالى في كتابه؟ فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارةً بالسجود، وتارة بالصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالته عليه وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحًا وفرق بينهما وعطف أحدهما على الآخر.

وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]. وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشى والإشراق أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين؟

وبالجملة: فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلًا على بطلانه والحمد لله[1].

الحكمة في نماء الزرع والشجر:

ثم تأمل هذا الريع والنماء الذي وضعه الله في الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعمائة حبة ولو أنبتت الحبة حبة واحدة مثلها لا يكون في الأرض متسع لما يرد في الغلة من الحب وما يكفي الناس ويقوت الزارع إلى إدراك زرعه فصار الزرع يريع[2] بهذا الريع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة وكذلك ثمار الأشجار والنخيل.

وكذلك ما يخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعلمونه في مآربهم خلفًا، فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص.

---

(١) السابق (١/ ٣٤٩-٣٥٠).

(٢) الريع: النماء والزيادة.

ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لأعطى أهله ما يبذرونه فيهم وما يقيتهم إلى استواء الزرع، فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون.

الحكمة في الحب:

ثم تأمل الحكمة في الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدويًا[١] في قشور على رؤوسها أمثال الأسنة، فلا يتمكن جند الطير من إفسادها والعبث فيها فإنه لو صادف الحب بارزًا لا صوان عليه ولا وقاية تحول دونه لتمكن منه كل التمكن، فأفسد وعاب وعاث وأكب عليه أكلًا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه، فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للإنسان فإنه أولى به لأنه هو الذي كدح فيه وشقى به وكان الذي يحتاج إليه أضعاف حاجة الطير[٢].

الحكمة في الفواكه الموسمية:

تأمل كيف اقتضت الحكمة الإلهية موافات أصناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموافاة الماء للظمآن، فتتلقاها الطبيعة بانشراح واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الغائب للغائب، فلو كان نبات الصيف إنما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهية واستثقالًا بوروده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف أو ما في خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ.

---

(١) أي: مغطي.

(٢) السابق [٣٥٢].

ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته مملولًا محلول الطعم ولا يظن أن هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخل بها الحكيم الخبير[١].

الحكمة في إخراج الثمار والفواكه

ثم تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئًا بعد شيء متتابعة، ولم يخلقها كلها جملة واحدة فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها فإن كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر، فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل في فصله موافق للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه.

ثم إنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع أخر من العصف والخشب والورق والنور[٢] والسعف والكرب[٣] وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات، كعلف البهائم وآلات الأبنية والسفن والرحال والأواني وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذي يسر الناظرين وحسن مرائي الشجر وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف.

ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومقاديرها، وألوانها، وطعومها، وروائحها، ومنافعها، وما يراد منها.

---

(١) السابق[١/ ٣٥٤].

(٢) النور: الزهر.

(٣) الكرب: الأصل العريض للسعف إذا يبس والمقصود هو إثارة الأرض للزرع.

ثم تأمل أين كانت مستودعة في تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم فهل كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الأصباغ الفائقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر المتحسنة.

فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وإبرازه وترتيبه شيئًا فشيئًا وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجاري الدقاق.

فمن الذي تولى ذلك كله ومن الذي أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات.

غذاء الأشجار وما فيه من الحكمة:

وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه في مجاري وطرق قد أحكمت غاية الإحكام، فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله، فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيده على قدر حاجته.

فسل الجاحد: من أعطاها هذا ومن هداها إليه ووضعه فيها؟ فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة أو حيلة أو مزاولة؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته، كما قيل:

فوا عجبا كيف يعصى الاله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدًا شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[1]

الحكمة في العجم والنوى:

ثم تأمل حكمته سبحانه في إبداع العجم والنوى في جوف الثمرة وما في ذلك من الحكم والفوائد التي منها أنه كالعظم لبدن الحيوان، فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع إليها الفساد، فهو بمنزلة العظم والثمرة بمنزلة اللحم الذي يكسوه الله - عَزَّ وَ جَلَ - العظام.

ومنها أن في ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها، فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يغرس فيعود مثلها.

ومنها ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع، والأدهان، والأدوية، والأصباغ، وضروب أخر من المصالح التي يتعلمها الناس وما خفي عليهم منها أكثر.

فتأمل الحكمة في إخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحبًا لذيذًا شهيًا، يتفكه به ابن آدم.

ثم تأمل هذه الحكمة البديعة في أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غلافًا يحفظها وغشاء يواريها كالرمان والجوز واللوز ونحوه.

وأما ما لا يفسد إذا كان بارزا، فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فإذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره.

---

(١) السابق [٣٤٧].

خلق الرمان وما فيه من البدائع:

تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب، فإنك ترى داخل الرمانة كأمثال القلال شحمًا متراكمًا في نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفًا رصفًا ومنضودًا نضدًا لا تمكن الأيدي أن تنضده، وترى الحب مقسومًا أقسامًا وفرقًا وكل قسم وفرقة منه ملفوفًا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج وألطفه وأدقه على غير منوال إلا منوال ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه أحسن ضم، فتأمل هذه الحكمة البديعة في الشحم المودع فيها فإن الحب لا يمد بعضه بعضًا إذ لو مد بعضه بعضًا لاختلط وصار حبة واحدة، فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء.

والدليل عليه إنك ترى أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه، فلا تشرب حق أختها، بل يجرى الغذاء في ذلك العرق مجرىً واحدًا ثم ينقسم منه في مجاري الحبوب كلها، فينبعث منه في كل مجرى غذاء تلك الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم إنه لف ذلك الحب في تلك الرمانة بتلك اللفائف ليضمه ويمسكه، فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صونًا له وحفظًا وممسكًا له بإذن الله وقدرته فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولا يمكننا ولا غيرنا استقصاء ذلك ولو طالت الأيام واتسع الفكر ولكن هذا منبه على ما وراءه واللبيب يكتفي ببعض ذلك.

وأما من غلبت عليه الشقاوة: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، غافلًا عن موضع الدلالة فيها[(١)].

---

(١) السابق [٣٥٠-٣٥١].

خلق البطيخ واليقطين والجزر:

ثم تأمل الحكمة في شجرة اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة أن يكون حمله ثمارًا كبارًا جعل نباته منبسطًا على الأرض إذ لو انتصب قائمًا كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل إدراكها وانتهائها إلى غاياتها، فاقتضت حكمة مبدعها وخالقها أن بسطه ومده على الأرض ليلقى عليها ثماره، فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطًا على الأرض وثماره مبثوثة حواليه كأنها حيوان قد اكتنفها جراؤها[1] فهي ترضعهم.

ولما كان شجر اللوبيا والباذنجان والباقلاء وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته أنبته الله منتصبًا قائمًا على ساقه إذ لا يلقى من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه.

النخلة وما فيها من العجائب:

ثم تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك، فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصًا بالمؤمن كما مثله النبي ﷺ[2] وذلك من وجوه كثيرة.

أحدها- ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

الثاني- طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره.

---

(١) جمع الجزر وهو: الصغير من ولد الكلب والأسد والسباع.

(٢) رواه البخاري برقم [٦١]، ومسلم برقم [٢٨١١].

الثالث- دوام لباسها وزينتها، فلا يسقط عنها صيفًا ولا شتاءً كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى.

الرابع- سهولة تناول ثمرتها وتيسره، أما قصيرها، فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم.

الخامس- أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم فإنه يؤكل رطبه فاكهةً وحلاوةً ويابسه يكون قوتًا وإدامًا[١] وفاكهًة ويتخذ منه الخل والناطف[٢] والحلوى، ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل ثمار.

وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلدًا، فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين[٣].

وفصل النزاع ذلك أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعًا وأجدى على أهله كالمدينة والحجاز والعراق والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعًا وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل[٤].

(١) الإدام هو طعام يؤكل مع الخبز جمعه أُدُم

(٢) نوع من الحلوى.

(٣) السابق(١/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٤) قلت: وإن كانت هذه المسألة لا يتعلق بها كبير عمل ولكن في نفسي من ذلك شيء فأقول: الأفضل والأنفع هو النخل وذلك لأمور:

١- أن الله عز وجل قال لمريم: « وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا فكلي وأشربي وقري عينًا» فجعل الثمر غذاء لها في مدة تقاسها وذلك لنفعه وغناه بالغذاء.

٢- من السنة أن يفطر الصائم على رطبات فإن لم يجد فعلى تمرات فإن لم يجد حسا حسوات من ماء.

وحضرت مرة في مجلسًا بمكة فيه من أكابر البلد فجرت هذه المسألة وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب في تفضيل النخل وفوائده وقال في أثناء كلامه: ويكفي في تفضيله أنا نشتري بنواه العنب، فكيف يفضل عليه ثمر يكون نواه ثمنًا له.

وقال آخر من الجماعة: قد فصل النبي ﷺ النزاع في هذه المسألة وشفى فيها نهيه عن تسمية شجر العنب كرمًا وقال: «**الكرم قلب المؤمن**»(١)، فأي دليل أبين من هذا وأخذوا يبالغون في تقرير ذلك.

فقلت للأول: ما ذكرته من كون نوى التمر ثمنًا للعنب، فليس بدليل فإن هذا له أسباب.

أحدها- حاجتكم إلى النوى للعلف فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحمولته.

الثاني- أن نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع.

الثالث- أن الأعناب عندكم قليلة جدًا والتمر أكثر شيء عندكم، فيكثر نواه، فيشترى به الشيء اليسير من العنب.

وأما في بلاد فيها سلطان العنب، فلا يشترى بالنوى منه شيء ولا قيمة لنوى التمر فيها.

٣- أن من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم مسٌّ ولا سحر كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ.

٤- أن النخلة لا يرمن منها شيء بل كل ما فيها يستعمل ويستفيد منه الناس.

٥- لما أرسل الرسول ﷺ وأمر عليهم أبا عبيدة زودهم جرابًا من تمر فكان يعطى الرجل في اليوم تمرة فتكفيه إلى الليل كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنهما.

٦- النخلة أرسخ أصلًا وأثبت أمام العواصف والرياح والله أعلم.

(١) رواه البخاري برقم [٦١٨٣]، ومسلم برقم [٢٢٤٧].

obeikandl.com

وقلت لمن احتج بالحديث: هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره، فإنه يؤكل رطبًا ويابسًا وحلوًا وحامضًا وتجنى منه أنواع الأشربة والحلوى والدبس وغير ذلك، فسموه كرمًا لكثرة خيره، فأخبرهم النبي ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة والرحمة واللين والعدل والإحسان والنصح وسائر أنواع البر والخير التي وضعها الله في قلب المؤمن فهو أحق بأن يسمى كرمًا من شجر العنب ولم يرد النبي ﷺ إبطال ما في شجر العنب من المنافع والفوائد وأن تسميته كرمًا كذب وإنها لفظة لا معنى تحتها كتسمية الجاهل عالمًا والفاجر برًا والبخيل سخيًا ألا ترى أنه لم ينف فوائد شجر العنب وإنما أخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائد وأعظم منافع منها.

هذا الكلام أو قريب منه جرى في ذلك المجلس وأنت إذا تدبرت قول النبي ﷺ «**الكرم قلب المؤمن**»[1] وجدته مطابقًا لقوله في النخلة «**مثلها مثل المسلم**» فشبه النخلة بالمسلم في حديث ابن عمر وشبه المسلم بالكرم في الحديث الآخر ونهاهم أن يخصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب المؤمن.

وقد قال بعض الناس في هذا معنى آخر وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرمًا لأنه يقتنى منه أم الخبائث فيكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها ويحضهم عليها من باب سد الذرائع في الألفاظ وهذا لا بأس به لولا أن قوله: فإن «**الكرم قلب المؤمن**» كالتعليل لهذا النهي والإشارة إلى أنه أولى بهذه التسمية من شجر العنب ورسول الله ﷺ أعلم بما أراد من كلامه فالذي قصده هو الحق.

وبالجملة فالله سبحانه عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والأعناب، فساقها فيما عدده عليهم من نعمه والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر إن شاء الله فإن أم

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

الخبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل كما قال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].

وقال أنس: نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الأعناب شيء وإنما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر، فلو كان نهيه ﷺ عن تسمية شجر العنب كرمًا لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن لأن المسكر يتخذ منها والله أعلم.

الوجه السادس: من وجوه التشبيه أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح.

السابع- أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة، فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل، وأنواع الآنية والحصر، وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها، فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور، فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينًا﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

الثامن- أنها كلما أطال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها، وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله.

التاسع- أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب.

العاشر- أنها لايتعطل نفعها بالكلية أبدًا، بل إن تعطلت منها منفعه ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب، فلا يزال خيره مأمولًا وشره مأمونًا.

في الترمذي مرفوعًا إلى النبي ﷺ «**خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره**»(١).

فهذا فصل معترض ذكرناه استطرادًا للحكمة في خلق النخلة وهيئتها، فلنرجع إليه.

فتأمل خلقة الجذع الذي لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدى(٢) وأخرى معترضة كاللحمة(٣) كنحو المنسوج باليد وذلك لتشتد وتصلب، فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها في السقوف والجسور والأواني، وغير ذلك مما يتخذ منها وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا تأملته شبه النسج ولا تراه مصمتًا(٤) كالحجر الصلد، بل ترى بعضه كأنه داخل بعضًا طولًا وعرضًا كتداخل أجزاء اللحم بعضها في بعض، فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه، فإنه لو كان مصمتًا كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتوابيت وما أشبهها.

ومن بديع الحكمة في الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات، والأمتعة وتمخر

(١) رواه الترمذي برقم [٢٢٦٣]، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم [٣٣٢٠].

(٢) يعني: ما يمد طولًا من النسيج.

(٣) أي الشيء الذي لا جوف له.

(٤) ما يمد عريضًا من النسيج.

البحر مقبلة ومدبرة ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة، ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم[1].

❁❁❁

(١) السابق [٣٥٧-٣٥٩].

obeikandl.com